

الرحلة في قصص عبد السلام العجيلي بين الواقع والخيال

د. هدى الحافي*

(الإيداع: 10 كانون الأول 2025، القبول: 31 آذار 2026)

الملخص:

يعالج بحث الرحلة في قصص عبد السلام العجيلي بين الواقع والخيال، موضوعاً من الموضوعات التي حظيت باهتمام الباحثين والنقاد على مرّ العصور. والبحث بذلك امتداد للأبحاث التي تناولت أدب الرحلة بالدراسة والنقد، لقد أظهر القاص في رحلاته معلومات تاريخية، وجغرافية، وعرض لعادات الشعوب الاجتماعية، متخذاً من الرحلة وسيلة للتعبير عن تجربة الإنسان في البحث عن الذات، وفهم العالم، وهنا تكمن أهمية البحث. وقد ناقش البحث دلالات المكان في أدب الرحلات بين الواقع والخيال، والأبعاد الزمنية التي سادت في الأحداث المعروضة، سواء بالعودة إلى الماضي حيث الذكريات، أو تشويش أبعاد الزمن بفعل الموقع الجغرافي، واختلاف مقياس الزمن تبعاً لذلك. أمّا هدف البحث فكان تسليط الضوء على هذا الفن الحكائي العريق، وكيف استطاع الكاتب عبد السلام العجيلي، أن يرصد من خلاله الظواهر غير المألوفة التي صادفها في رحلاته، والتي أثارت دهشته، فنقلها الى القارئ نقلاً فنياً مشوقاً. أمّا منهج البحث فكان المنهج النفسي. وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج، لعلّ أبرزها: إنّ البعد الخيالي في رحلات (عبد السلام العجيلي) يكمن في معاينته للدهشة التي تصيب الإنسان، وهو يرى أماكن وأشخاصاً، مخالفة لما اعتاد عليه.

الكلمات مفتاحية: أدب الرحلات، واقع، خيال، عبد السلام العجيلي.

*دكتوراه أدب حديث – كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

The Journy in The Stories of Abd Al Salam Al Ujayli between Relityand Imagination

D. HUDA AI HAFI*

(Received: 10 December 2025, Accepted: 31 March 2026)

Abstract:

The study of the journey motif in the stories of Abdul Salam Al-Ujayli, between reality and imagination, addresses a topic that has received the attention of researchers and critics throughout the ages. Research in this field represents an extension of studies that have examined travel literature through analysis and criticism. In his journeys, the storyteller presents historical and geographical information and portrays the social customs of different peoples, adopting the journey as a means of expressing the human experience in the search for the self and the understanding of the world. Here lies the significance of the study. The research discusses the connotations of place in travel literature between reality and imagination, as well as the temporal dimensions that dominate the narrated events—whether through a return to the past in the form of memories or through the blurring of temporal boundaries due to geographical location and the differing measures of time that result from it. The aim of the study is to shed light on this ancient narrative art and to show how the writer Abdul Salam Al-Ujayli was able to observe, through it, the unfamiliar phenomena he encountered during his journeys—phenomena that aroused his astonishment and which he conveyed to the reader in an engaging manner. The research method adopted was the psychological approach. The study ultimately arrived at several conclusions, the most notable being that the imaginative dimension in Abdul Salam Al-Ujayli's journeys lies in his observation of the sense of wonder that affects a person when encountering places and people different from what he is accustomed to.

Keywords: travel literature, reality, imagination, Abd al-Salam al-'Ujaili.

*Phd: in arabic language literature modern– Faculty of Arts and Humanities.

منذ أن خلق الله الإنسان على وجه الأرض، وهو يحاول اكتشاف ما يحيط به من مجاهل وأسرار، وبناء على ذلك فالرحلة بالنسبة للإنسان هي حاجة روحية ومعرفية، قبل أن تكون حاجة مادية.

وإذ كانت الرحلة تحقق للمسافر متعة الهروب من رتابة الحياة، فإنها في الوقت ذاته تعكس رغبة دفينية للمعرفة، وبذلك فسرد الكتاب لبعض رحلاتهم، يغني العلوم (الجغرافية والاجتماعية وحتى النفسية)، لأن الكاتب يستقي معلوماته من الواقع مباشرة.

أهداف البحث:

إن الهدف من هذا البحث: هو التأكيد على أن الغاية من الرحلة لا تقتصر فقط على تحقيق حلم الإنسان بالحرية، وإنما هي دعوة إلى رؤية العالم بطريقة جديدة.

إن ما وصفه الكاتب في رحلاته من أماكن مذهلة، أو أزمنة مخالفة للزمن العادي (بفعل عوامل نفسية أو جغرافية)، يؤكد أن الزمان والمكان، يشكلان أحد أهم الركائز التي يستند عليها أدب الرحلات في سرده للمغامرات، ووصفه لها.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث:

- في أنه يعالج موضوعاً، له بعده التاريخي العريق في الفكر الإنساني عامة، وفي الفكر العربي على وجه الخصوص.
- كما أنه يلقي الضوء على التداخل بين الواقع والخيال، في نتاج الكاتب عبد السلام العجيلي، الأمر الذي نقل الرحلة عنده، من تصوير فوتوغرافي إلى فضاء مفتوح على الدهشة والفضول.

إشكالية البحث: تتمحور إشكالية البحث حول ما يلي:

- كيف تتجلى الرحلة في قصص عبد السلام العجيلي؟
- وكيف يتداخل الواقع مع الخيال في هذه القصص؟

منهجية البحث:

- إن الرحلة في وصفها للعالم الجديد الذي يحيا فيه المسافر، وتأثير ذلك على كيانه النفسي، جعلت البحث يستند إلى المنهج النفسي، في دراسته للقصص.

الدراسات السابقة:

اعتمد البحث على جملة من الدراسات السابقة، لعل أبرزها:

- كتاب بعنوان: (نظام الرحلة ودلالاتها السندباد البحري عينة) لعليمة القادري، وقد ناقشت فيه الحكاية السردية في قصص السندباد، وما تضمنته تلك القصص من شخصيات رامية.
- وكتاب (أدب الرحلات)، لحسين محمد فهم، وقد صدر عام ١٩٨٩، عن سلسلة عالم المعرفة، في الكويت، والكتاب حاول دراسة أدب الرحلات من منظور جديد، وإبراز حقيقة الأعمال التراثية.
- ومقالة بعنوان: (الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد)، بقلم نادية محمود عبد الله، مجلة عالم الفكر، ١٩٨٣، وقد تناولت الباحثة فيها الرحلات التي قام بها أندريه إلى أفريقيا، تونس، الجزائر، وقد أكد (أندريه جيد) أن ما يشكل جاذبية الرحلة وفتنتها، هو أن المكان يبدو جديداً بالنسبة لنا.

خطة البحث:

ولكي تحقّق الدراسة غايتها فقد قسمت البحث إلى مقدمة ومطلّبين وخاتمة، قمت في المطلب الأول بدراسة المكان ضمن ثنائيات الواقع والخيال. وأما المطلب الثاني: فدرست فيه بناء الزمان في الرحلة عند العجيلي، أما الخاتمة فقد تضمّنت أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث.

لمحة عن حياة عبد السلام العجيلي:

ولد عبد السلام العجيلي في الرقة، وتلقّى تعليمه الابتدائي فيها، ثم مضى إلى تجهيز حلب، ولكن المرض أعاده إلى الرقة، ليقضي أربع سنوات في قراءة كتب التاريخ والدين، والقصص الشعبي، ودواوين التراث الشعري، ثم تابع دراسته في حلب، ليعود إلى الرقة طبيباً، نُشرت قصته الأولى (نومان) بتوقيع ع.ع، في مجلة الرسالة المصرية. وفازت قصته (حفنة من الدماء) بجائزة مسابقة القصة التي نظمتها مجلة الصباح عام (١٩٤٣)

كتب في القصة القصيرة عدّة مجموعات منها: بنت الساحرة (١٩٤٨)، ساعة الملازم (١٩٥١)، قناديل إشبيلية (١٩٥٦)، الخيل والنساء (١٩٦٠)، فارس مدينة القنطرة (١٩٧١)، الحب الحزين (١٩٧٩)، مجهولة على الطريق (١٩٩٧)، وغيرها.... أما في الرواية فقد كتب روايته الأولى باسمه بين الدموع (١٩٥٩)، وهي روايته الأولى، قلوب على الأسلاك (١٩٧٤)، ألوان الحب الثلاثة (١٩٧٥)، أزاهير تشرين المدماة (١٩٧٧)، المغمورون (١٩٧٩)، أرض السياد (١٩٩٨)، أجملهن (٢٠٠١). وقد أفرد الكاتب للحكاية، وأدب الرحلات بعضاً من مجموعاته القصصية، منها: حكايات من الرحلات، دعوه إلى السفر، ومحطات في الحياة.¹

التعريف بكتابي: حكايات من الرحلات، ودعوة إلى السفر:

تضمن كتابه حكايات من الرحلات، مجموعة من القصص والحكايات التي رواها الكاتب، وأراد من خلالها وصف الأماكن التي زارها، ونقل الأحداث التي عاشها، وقد تميّز أسلوبه: بالتشويق والإثارة، ولا سيما في قصة الحج إلى قرطبة، وأسطورة الجنرال مسكاريدو.

أما في كتابه دعوة إلى السفر، فقد أراد أن يصف انطباعاته أمام ما رآه في عوالم أسفاره الغربية، وقد تجلّى ذلك في قصته: رحلة في جوف الأرض، وذكريات باريسية.

وفي الكتابين كان هدف القاص أن يشارك القارئ تفاصيل أسفاره، ناقلاً إياه إلى أجواء الرحلة لينعم بجمالها.

مقدمة:

إنّ رغبة الإنسان في اكتشاف ما حوله، وفضوله الدائم إلى المعرفة، كانت الدافع الأساس للارتحال، فمنذ أن خلق الله الإنسان على سطح هذه الأرض، وهو في رحلة دائمة، ومما لا شكّ فيه أنّ الكاتب الذي يريد تسجيل رحلاته، يتمتع بقدرة كبيرة على السرد، كما يتمتع بدقة الملاحظة والاهتمام بجميع التفاصيل، التي يراها ويعاينها بدقة.

ومن هنا فقد ورد تعريف أدب الرحلة في معجم المصطلحات في اللغة والأدب: "هو مجموعة الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته إلى بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك أخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آنٍ واحد"²، فمن خلال أدب الرحلات يمكن للإنسان أن يكتشف موقعه ضمن السياقات الثقافية المختلفة التي يصادفها، ويمكنه أن يدرك كيف تتشكّل هويته الخاصة.

وبهذا المنظور تغدو الرحلة فرصة لاستكشاف التباين بين ما هو مألوف، وما هو غريب، وكيف يؤثر التفاعل بين المألوف والغريب في تكوين نظرة الإنسان لذاته وللآخر.

¹ - ينظر: عدّة مؤلفين، الدكتور عبد السلام العجيلي درة الفرات، الإعداد والتوثيق علي القيم، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، 2006، ص ٥٣-٥٤.
² هوبه، مجدي، المهندس، كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة بيروت، ط٢، 1984، ص ١٢.

وضمن هذا الإطار يمكننا أن ندرس أدب الرحلة عند عبد السلام العجيلي:

المكان بين الواقع والخيال:

يشكل (المكان) أحد أهم العناصر البنائية التي تسم أدب الرحلات، وتعبّر عنه في الوقت ذاته، حيث يلجأ القاص، وبدوافع مختلفة إلى وصف المكان بشيء من التفصيل، ولعلّ الهدف الأساس الذي يسعى إليه القاص هو جعل القارئ يعيش معه مشاعر الدهشة والفضول؛ فتأمل المكان هو بصفة مشتركة بين جميع المسافرين. ومن هذه النقطة، فالمكان عند المسافر، يأخذ بُعداً أعمق من كونه وجوداً هندسياً، إنّ له تأثيراً عميقاً وقدرةً على أن يخلق في الإنسان مشاعر متباينة. "فالمكان. إذاً مهما بدا محايداً يثير قدراً من المشاعر في نفس المتعامل معه، فيكتسب منذ رؤيته بُعداً نفسياً يختلف من مكانٍ لآخر"³.

وضمن هذا التفاعل بين الذات والمكان، نستطيع أن نُحلّق مع الكاتب عبد السلام العجيلي في أسفاره المختلفة، وأن نعيش معه في الأماكن التي زارها. ولأنّ السفر - في معظم حالاته - مغامرة مليئة بالإثارة والدهشة، فإنّه يفتح أمام الإنسان آفاقاً جديدة، لتجارب مختلفة عمّا عاشها في بلاده. ومن هذا المنظور، فإن الرحلة تعيد للإنسان مقدرته على الاكتشاف والتقصّي، تماماً كما كان يفعل في طفولته.

في قصة (رحلة في جوف الأرض) يصف عبد السلام العجيلي عربة التلفريك بقوله: "وهي عربات مكعّبة تسع الواحدة منها أربعة ركّاب في كرسيين متقابلين، معلّقة من أعلاها بسلك يمتدّ بين بكرتين: إحداها في قاع الوادي والأخرى في قمة الجبل. وبين هاتين البكرتين تنتقل عربات التلفريك في الفضاء الرّحب، لا مسند لها إلّا هذا السلك الفولاذي المعلق بها، وهو سلك غليظ متين، لكنّه يبدو لراكب العربة أرقّ من الشعرة، وأوهى من خيط العنكبوت"⁴.

يقدم الكاتب وصفاً غنياً بالتفاصيل الدقيقة، التي من شأنها أن تعكس الأحاسيس المتناقضة للأشخاص المعلقين في هذه العربة الصغيرة؛ فهناك مشاعر الدهشة والمتعة والإثارة، ويقابلها مشاعر الخوف وقلق الضياع والفقد. فالعربة المغلقة والركّاب الموجودون ضمن مساحة صغيرة، في هذا المكان المقطوع من الوجود، يوقظ في الكاتب أصداً غامضة تأخذ لّبه، وهو يشعر بالتحرّر من ثقل المكان ووطأته.

إنّ المغامرة باتجاه الأعلى كانت فرصة ذهبية لتغيير زاوية الرؤية المعتادة؛ فقد أطلّ الكاتب على هذا الفضاء الواسع مستمتعاً برؤية الحقول والأشجار التي بدت من الأعلى صغيرة الحجم.

لقد تحوّلت العربة - في نظر القاص - إلى أداة سحرية تختصر المسافات المتباعدة والوعرة، وحلقة تصل بين السماء والأرض، أو بين عالَمين: العالم الأرضي، حيث الحياة اليومية المليئة بالضجيج والحركة، وعالم العربة حيث السكون والهدوء، الذي يبعث على التأمل. فعندما يبتعد الإنسان عن الأرض، ويحلّق في الأعلى، يبدو المنظر الذي يراه خيالياً عجيباً وغير مألوف، وفي الوقت ذاته يوقظ في الإنسان القلق والخوف.

وقد أسهب الكاتب في وصف تفاصيل المكان، وذلك حتى يتمكّن القارئ من مشاركته رحلته المثيرة تلك، ولو بالخيال، يقول: "كان بعضنا يركب التلفريك لأول مرة في حياته، فكان من المتعذّر عليه ألاّ يخاف، وهو يرى نفسه يمرّ فوق الوديان السحيقة، حيث يبدو البشر دونه أقزاماً، والأشجار الضخمة أعوداً دقيقة. وترى السلك المعلّقة به عربته يدقّ في الفضاء، كلّما ابتعد عن عينيه حتى يتلاشى، ويعلم الزاكب أنّ حياته معلّقة بهذا السلك الدقيق المتلاشي"⁵.

فالسلك الفولاذي الغليظ، يتحوّل في نظر الراكب المعلق في الفضاء إلى خيطٍ دقيق يكاد يتلاشى، ويترك ذلك المسافر المسكين القابع في العربة في مواجهة مصير التلاشي والضياع. ولعلّ وصف الكاتب للسلك بأنّه "سلك دقيق متلاشي" يعكس

³صالح، صلاح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1997، ص55.

⁴العجيلي، عبد السلام: دعوة إلى السفر، دار عويدات، بيروت، ط1، 1963، ص21.

⁵العجيلي، عبد السلام: المصدر السابق، ص21.

خوفاً دفيناً في مواجهة الإنسان لخطر التلاشي والاندثار، إن لم يستطع هذا السلك أن يقوم بوظيفته بحمل المسافر، وإيصاله إلى الوجهة التي يريدها.

فرحلة الكاتب كغيرها من الرحلات تحتاج إلى طريق، ولكن الطريق في عربة التلفريك طريق غير مألوف غريب؛ إنه مجرد سلك يحمل بين ثناياه تناقضاً عجباً، فهو من جهة الملاذ الذي يمكن الإنسان من رؤية الأرض التي يحيا فوقها عن بُعد، ويمنحه سياحة في عالم الفضاء المترامي، ويقدم له ترويحاً عن النفس وإمتاعاً لها. ومن جهة أخرى، يدرك المسافر عبر هذا السلك أن حياته مهددة، فيعيش وجهاً لوجه مع تجربة الخوف، وقلق مواجهة مصير الموت، ومن شأن هذين الشعورين المتناقضين أن يشحذا الإنسان بطاقة عظيمة، فيقبل على الحياة من جديد بطريقة مختلفة.

وفي مقابل رحلة الكاتب نحو الأعلى، هناك رحلة أخرى، لكن هذه المرة في أعماق الأرض، حيث عمال المناجم يعملون أعمالاً شاقة مرهقة. الملاحظة الأولى التي نسوقها عن الرحلة التي قام بها الكاتب في عربة التلفريك أنها رحلة مصحوبة بنوع من النشوة، لأنها على المستوى الرمزي تعني الارتفاع والسمو. أما الرحلات التي يقوم بها في الطبقات تحت الأرضية فإننا نلاحظ أنها ترتبط بالمخاوف والرعب والمعاناة⁶.

لقد أطل الكاتب وصف الممرات والسراريب المخيفة في رحلته مع عمال المناجم، وأسهب في ذكر تفاصيلها. ولعل السبب الجوهري في ذلك أنه أراد أن يصف ما يتعرض له الإنسان الذي يغوص في أعماق الأرض، لا يعرف ليله من نهاره، وما يلاقيه من عذاب. ذلك أن "الأمكنة تحت الأرضية هي الأمكنة التي تتوقف فيها حياة الإنسان، وتقطع صلته بالآخرين وبالزمن"⁷، فتغدو تلك الأمكنة محملة بدلالات الألم والمعاناة، النعب والشقاء "ففي القبو تسود الظلمة ليل نهار، حتى لو حملنا شمعة فسوف نرى الظلال تتحرك على الجدران القائمة"⁸ على عكس الأمكنة التي يراها من أعلى عربة التلفريك، فهي أمكنة توقظ في الإنسان أحاسيس المرح، والسعادة، والبهجة الممزوجة بقلق محبب. يقول: "وكان سيرنا دوماً في أنفاق طويلة باردة الجدران واطئة السقوف، قد صُفحت جنباتها بجذوع ضخمة من الخشب تمنعها من الانهيار، وتمتد في قاعها خطوط حديدية ضيقة، تجري عليها العربات المحملة أملاحاً من أملاح المعادن التي يستخرجها المعدنون من هذه المناجم، وكلما أمعنا السير في هذه الأنفاق، وتقاربت جدرانها وانحدرت سقوفها، وقل اختراق النور لظلماتها المتكاثفة، خيل إلينا أن هواءها قد أصبح في ثقل الرصاص، وجائماً على أنفاسنا"⁹.

فالمكان الضيق، والمحدود يغدو معبراً عن حجم الضغط النفسي الذي يُعانيه الإنسان في مثل هذه الأماكن "إننا نشعر أن هذه الرعشة، ليست رعشة الخوف الإنساني، بل الخوف الكوني، الخوف الإنساني الكوني، الذي يحمل أصداً تلك الأسطورة الكبرى التي تحكي عن الإنسان الملقى في وضع بدائي، من الكهف المنحوت في الصخر إلى العالم السفلي"¹⁰. إن إسهاب الكاتب في وصف المكان، كان له أبلغ الأثر في جعل المكان يبدو فجائعاً مقلقاً، سارقاً من الإنسان طاقة الحياة النابضة، ومسلماً إياه لوساوس الأفكار التي تجعله يغرق في وحلها. (فالجدران الباردة، والسقوف المنخفضة، والأنفاق الطويلة، وانعدام الضوء)، جميعها تشتت في رسم تفاصيل مكانٍ مستبد فاتك، تتناغم معه أحاسيس فطرية غامضة، ولكنها قادرة على أن تخرج ما في أعماق الإنسان من قلقٍ مبهم أو شعورٍ بعدم الارتياح.

6 يُنظر: النصير، ياسين: المساحة المخفية (قراءة في الكتابة الشعبية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٥، ص ٨٥.

7 قادري، عليم: نظام الرحلة ودلالاتها (المسند البصري- عين)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦، ص ١٧٧.

8 باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤، ص ٧٤.

9 العجيلي، عبد السلام: دعوة إلى السفر، ص ٢٣.

10 باشلار، غاستون، جماليات المكان، ص ٥٥.

وبذلك يغدو فقدان الإحساس بالحياة، وما يخلقه من تشويش في الإحساس، مولدًا لمكانٍ خيالي، وملقيًا بالأحداث في جَوٍّ أسطوريٍّ يشيع في أجوائه الوجوم، والترقب لحديثٍ فظيعٍ قد يحدث في أية لحظة. الأمر الذي يخلق علاقةً متوترةً بين المكان والإنسان.

هذه العلاقة لم تأت من فراغ؛ لقد سبق ذلك عشرات الحوادث لأناسٍ دُفِنوا في السرداب الغائرة، "فالعقل الإنساني نفسه يمكن أن يؤثر في هذه القوى الأرضية، فيجعلها بشكلٍ ما تُسجل انفعالاته القوية"¹¹، انفعالات الذعر والألم قبل الموت والدفن في هذا المكان.

وربما كان هذا وراء الشعور الغريب، وغير المريح الذي ينتهي بجميع من ينزل إلى هذه الأعماق السحيقة. يقول: "فخُذِلَ إلينا في ضيق المكان ووحشة السرداب ورهبة الذكرى، أننا نرى بأعيننا انهيار ركن الجبل في هذه البقعة، ونسمع صيحات أولئك المساكين المخنوقة في حناجرهم، بل ونُحس قرعة عظامهم تحت الأثقال الطاحنة المتكومة فوقهم"¹². إن فقدان الإحساس بالحياة، والفراغ الموحش الذي يغرق فيه عمال المناجم، يُحوّلهم إلى كائناتٍ تنتظر الفناء، وما يحمله ذلك من فقدان كامل للإرادة؛ فهم عاجزون عن الهرب أو النجاة بأجسادهم إذا انهار النفق، إن هذا الإحساس بمفرده، كفيل بأن يجذب آلاف المشاعر، التي تجعل الإحباط الممزوج باليأس يتصاعد، حتى يجذب إليه صرخات من ماتوا منذ عشرات السنين في هذه البقعة المعدّبة من الأرض، يصبح الموت هو الفكرة الوحيدة المسيطرة على عقل كلّ من عاش في هذا السرداب الطويل ولو لفترةٍ قصيرة من الزمن. نخلص إلى القول:

إنّ القلق هو الشعور المرافق للكاتب في رحلتيه السابقتين؛ ففي رحلته الأولى عبر (التلفريك) كان القلق ممزوجاً بشعور النشوة والمرح والترويح عن النفس، أما في رحلته الثانية في أعماق المنجم فكان القلق الممزوج بالخوف، وعدم الارتياح، والانتظار المستمر لقدّر الموت. وهما شعوران متناقضان يشعر بهما كلّ من سنحت له الفرصة بزيارة هذين المكانين. في الواقع، إنّ مسألة عبور المكان في أدب الرحلات من الأمور التي تُميّز هذا الأدب، وبذلك يشكّل القطار بوصفه الأداة أو المطية التي ينتقل عبرها المسافر بُعداً مكانياً مهماً، إذ يصبح مسرحاً للأحداث. أما الأشخاص الذين يُصادفهم المسافر في رحلاته، فيتحوّلون إلى موضوعٍ للتأمل ولإثارة انطباعاتٍ ذهنيةٍ متسلسلة لا تنتهي، ولا تقف عند حدّ. في قصة (حدث في القطار) يقدّم الكاتب القطار بوصفه مكاناً لاجتماع أشخاصٍ مختلفين، لا رابط بينهم سوى أنهم يركبون القطار ذاته، يُعَمِّل الكاتب ذهنه في النقاط السّمات التي تُميّز بين الشعوب، يقول:

"في قطار الكوريبيوس، حينما أوغلْتُ في الجنوب من إسبانيا، وجدتُ الفوضى المصبوغة بروح المرح التي افتقدتها في صفوف الإنجليز أمام عربات (الكوش)، وفي انتظام الألمان الذي تسوده الصرامة أمام شبابيك التذاكر. وفي قطار (الكوريبيوس) وجدتُ الأسرة التي دعيتي إلى مشاركتها طعامها، وأنا لا أتكلّم لغتها"¹³.

وضمن هذا التفاعل بين المسافر والمكان، نستطيع التعرّف على أكثر الأشياء التي تلفت نظر المسافر، وتتجّع في جعل الكاتب يُمعن في تأملها، ذلك أنّ المكان "يلد السرّ قبل أن تلده الأحداث"¹⁴، فالقطار هو مكان جمع في عرباته مسافرين من مختلف أصقاع الأرض، وكلّ مسافر يعكس عادات وطباع المكان الذي جاء منه.

يغدو القطار صورة مصغّرة عن العالم، فهو مكان متحرك ومغلق في الوقت ذاته، إنّ انغلاق القطار يشكّل فرصة لتأمل الذات في الأشخاص الآخرين، والتعرّف فيهم جيّداً، ومن ثمّ التعرّف على عاداتهم وتقاليدهم، تتحوّل الأنّا هنا إلى أنا مراقبة متأملّة

¹¹ولسن، كولن: خفايا الرّوح، ترجمة: مجاهد عبد مجاهد، دار الآداب، بيروت، 1981، ص ١٤٢.

¹²العجيلي، عبد السلام: دعوة إلى السفر، ص ٢٢.

¹³العجيلي، عبد السلام: حكايات من الرحلات، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٤، ص ٥٣.

¹⁴هلسا، غالب: المكان في الرواية العربية، دار ابن هانئ، دمشق، ١٩٨٩، ص ١١.

منفتحة على الآخر، والكاتب بذلك يتلقى دروساً معرفية مختلفة، وفي الوقت ذاته يتعمق إحساسه بالتمايز عن غيره، ومن هنا تتحول الرحلة من انتقال جغرافي إلى تجربة معرفية إنسانية، تُغني الذات وتعمق فهمها لذاتها وللآخر في الوقت ذاته.

الأمر الذي يجعلنا نقول:

إنّ القطار متحرك، جمع في منتهى أمكنه متنوّعة، "غالباً ما يكون المكان المتحرك موطئاً لغرض فكري- سياسي بالدرجة الأولى"¹⁵، والكاتب استثمر ذلك في إبراز الفروق بين الشعوب في اللغة، والعادات والأشكال. وقد ألمح الكاتب إلى الدروس المستفادة من هذه الرحلات، يقول:

"وقد ركبْتُ هذا القطار بتذكّره من باريس إلى حلب، ونزلتُ في مدنٍ عديدةٍ بينهما على الطريق، فتلقّيتُ في رحلتي هذه دروساً عديدة، بعضها ممتع، وكثيرٌ منها مزعج، في مزايا الشعوب وفروق العملات وأساليب الحكم"¹⁶.

فإذا كانت الدوافع من الرحلة هي البحث عن عوالم جديدة، فالرحلة التي تُوسّع من آفاق الفضاء أمام الإنسان تغدو وعداً بالسعادة. لذلك نرى العديد من الروائيين يُعبّرون عن هذا الوعد الجميل بالانتقال والرحيل إلى الهناك"¹⁷، ولذلك فإنّ المكان يصبح هو الهدف الذي يتجسّم الكاتب عناء السفر لأجله، ولا سيّما إذا كان هذا المكان مرتبطاً بالذاكرة التاريخية للكاتب، فللمكان سحره الخاص، وقدرته الفريدة على الإثارة، والإغراء، والتشويق الذي يستدعي الزمن في سياقه، الأمر الذي يدفعنا إلى دراسة الزمن في الرحلة:

بناء الزمن في الرحلة عند العجيلي:

إنّ رفض الطابع الموضوعي للزمان، وسّع من العالم الحكائي لأدب الرحلات، فالطابع الذاتي للزمان في بعض جوانبه جعله يرتبط بصورة متينة بمشاعر الإنسان، ولعلّ ذلك كان له أبلغ الأثر في توسيع العلاقة التقليدية بين الزمن والإنسان، فلم يعد للزمان ذلك التتابع الخطي، وإنما تداخلت الأزمنة، فعلى الرغم ممّا قد تقصص عنه الرحلة من نقلة مكانية "إلا أنّها تتضمن أيضاً بعداً زمنياً، حيث يبرز فيه الماضي بصورة جليّة وبرّاقة، ويكون عادة مفضلاً ومحبباً للنفس، لما فيه من سعادة"¹⁸. ولذلك فإنّ امتزاج الحاضر مع الماضي من شأنه أن يبرز التنوّع الذي يحتويه أدب الرحلات، يمكننا أن نأخذ على سبيل المثال قصّة (الحج إلى قرطبة)، حيث يعود الكاتب بذاكرته إلى أيام الحضارة العربية المزدهرة في الأندلس يقول واصفاً رحلته: "رحتُ أطوف بين أساطين الجوامع، وقد غمرني في البدء شعور رقيق من الراحة بأنّي بلغت للنفس لبّانة، حيث انتهيت إلى هذا الأثر، الذي طالما تمثّلت إليّ أعمدته بين سطور الكتب التي قرأتها، وأضاءت لي شموعه في ثنانيا قصص التاريخ الأندلسي القديم. ثم أحسستُ بأنّ ضرباً من الألفة بيني وبين هذا المسجد"¹⁹.

إنّ متعة الانتقال من الواقع اليومي الثّقيل المتعب، إلى الواقع التاريخي الجميل والمريح، هي التي جعلت الكاتب يشعر بالانسجام الروحي مع تفاصيل المكان، الذي امتلأت ثناياه بالعجائب الأمر الذي مكّنه من "أن يخلق أفقاً واسعاً، وامتداداً كبيراً للوعي، شريطة أن ينجح المرء في تمثيل المحتويات التي استعادها بعد فقدانها زمنياً طويلاً ودمجها بعقله الباطن"²⁰.

وما حصل مع الكاتب في تلك اللحظة لا يخرج عن ذلك؛ فقد ازدادت قوّة الخيال لديه، فراح يتحرّر من حاضره ويخرج منه، ناسياً كلّ ما يحيط به، ليدخل في عوالم أخرى جديدة. وبذلك يكون قد حقّق لنفسه خلاصاً مؤقتاً، وجد فيه متعة تُعيده إلى الماضي الجميل. إنّ دخولنا هذا العالم الأثيري البهيج مرهونٌ بالمكان "فماضينا يتحوّل إلى مكان آخر، ويصبح الزمان

¹⁵النصير، ياسين: الرواية والمكان، دار نينوى، دمشق، سورية، ط ٢، ٢٠١٠، ص ١١٥.

¹⁶العجيلي، عبد السلام: حكايات من الرحلات، ص ٥٥.

¹⁷شبيب، عبد العزيز: الفن الروائي عند غادة السّمان، دار المعارف، سوسة، تونس، ط ١، ١٩٨٧، ص ٥٢.

¹⁸فهم، حسين محمّد، أدب الرحلات، عالم المعرفة، لمجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، عدد: ١٣٨، يونيو، ١٩٨٩، ص ١٥٢.

¹⁹العجيلي، عبد السلام: حكايات من الرحلات، ص ٣٩.

²⁰يونغ، كارل: الإنسان ورموزه (سكولوجيا العقل الباطن)، ص ١٢٣.

والمكان مخترقين ومتخللين بحس غير واقعي، ونبدو لأنفسنا وكأننا في مطهر عابر²¹. الأمر الذي حفّز لدينا الخيال، وجعلنا نتخيل مع الكاتب الشخصيات، والوقائع، والأحداث بطريقة نابضة بالحياة.

تعود شخصيات الماضي بكل ما لها من الاستقلال والنضج والدراية والإيمان. يقول:

"لم ألبث أن انسقت وراء العاطفة المستعرة، ولثمت في خشوع جباه تلك الحجارة الخارجية، وفي خاطري صور الغطارييف الذين لمست أيديهم هذه الحجارة، وتمسّحت بها مناكبهم في ركوعهم وسجودهم لله العليّ القدير، الذي أخرجهم من صحراء قاحلة، وبعثهم بناة حضارة، وهداة إنسانية إلى أقطار من الدنيا ما كانوا يتصوّرون أنّ لها على الأرض وجوداً"²².

فالماضي يفرض نفسه على الكاتب، فيثير في ذهنه أفكاراً، وتصورات تتداخل مع انطباعات تتبع من المكان، وما يحمله من خصوصية تاريخية، قادرة على تجاوز الحدود الفاصلة بين الماضي والحاضر. "فالذكرى ليست تكراراً، ولا هي تذكر شيء محتفظ به في الذاكرة، إنها إعادة تنظيم للماضي، خاضعاً لتوجه ذي طابع على وجه العموم عاطفي"²³.

وبناءً على ذلك يعود الكاتب بذاكرته إلى الوراء، يتأمل في مشاهد الجنود المجاهدين، وهم يمارسون عباداتهم في حالٍ من الطمأنينة واليقين. فالحجارة التي لثمها الكاتب ليست مجرد حجارة خالدة على مرّ الزمان، بل هي في نظره رمزٌ لثبات الحضارة العربية، إنّ انكشاف الدّاخل العاطفي لأنّا الكاتب على الزمن الماضي السعيد، قد عمّق إحساسه بالألفة والطمأنينة، الأمر الذي جعل دلالات الرّكوع والسّجود تتواشج مع قيم البطولة، راسمة بذلك صورة مثالية للإنسان العربي، الذي يحمل في داخله القوة والإيمان.

والكاتب في ذلك كلّهُ إنّما يسعى إلى سدّ الفجوة بين الزمنين: الماضي والحاضر، وما يعزّزه ذلك في نفسه من راحة داخلية واستقرار نفسي.

ومما لا شكّ فيه أنّ الرّحلة- مهما كانت غاياتها وأحداثها- تحمل في داخلها إحساساً بالصّياح والتّلاشي؛ فالإنسان الذي يُغادر المكان ويبتعد عنه يفقد شيئاً من هويّته، فالمكان هو امتداد لذات الإنسان. ولذلك فقد عثر الكاتب على هويّته المثالية في هذا المكان.

ومن هذه النقطة يمكننا أن نقول:

إنّ البُعد اللاواعي في هذه القصّة يكمن في عودة الماضي، والسّير بالزّمن نحو الخلف بدل المضيّ به إلى الأمام؛ فالغياب هنا هو غياب وهمي، أمّا أشخاص الماضي فيعودون من جديد إلى الحياة بفضل المكان. ولعلّ ذلك يدعونا إلى القول: "إنّ كلّ إنسانٍ يحمل في أعماقه عدّاداً داخلياً، يُعَيّر الوقت على هواه، وهكذا لا يوجد زمان متجانس، بل توجد أزمنة متعدّدة بقدر ما هنالك من بشر، وكلّ إنسانٍ يُبدع معياره الخاص به"²⁴.

وتبقى مسألة الزمن من المسائل البارزة، التي تبعد القصّة عن الواقع، فتفجر طاقة الخيال، وتعيد الذكريات، ممّا يجعل الماضي قادراً على أن يؤثر في الأحداث، على الرّغم من أنّه في جوهره عاجز بطلت فائدته، واستنفد إمكانياته، وانحصر أثره في مدى انعكاسه على الحاضر²⁵، فإذا هو يعيش بطريقة تقربه إلى الأسطورة، كما في قصة (أسطورة الجنرال مسكاردو) يقدّم الكاتب نموذجاً مختلفاً للزمن، إذ يعود إلى الوراء، إلى زمن عاش فيه الجنرال مسكاردو، ذلك القائد الذي أسبغ عليه النّاس من الصّفات والميزات، ما جعل البطولات التي قام بها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وذلك لعجز الإنسان العادي عن أن يقوم بمثل ما قام به هذا الرّجل من تضحية وصمود.

²¹باشلار، غاستون، جماليّات المكان، ص ٧٥.

²² العجيلي، عبد السلام: حكايات من الرّحلات، ص ٤٠.

²³مترى، جان، علم نفس وعلم جمال السّينما، ترجمة: عبد الله عويشق، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ط١، ١٩٧١، ص ٤٥٤.

²⁴شاهين، سمير الحاج: لحظة الأبدية (دراسة الزمن في أدب القرن العشرين)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢١١.

²⁵شاهين، سمير الحاج: المرجع السابق، ص ٧٤.

في الواقع إنَّ الماضي " لا يكاد يصبح صورة حتَّى يتخلَّى عن حالة الذِّكرى الخالصة، ويختلط بجزء معيَّن من حاضري، فالذِّكرى المتحقِّقة في صورة تختلف إذن اختلافاً عميقاً عن هذه الذِّكرى الخالصة، الصُّورة حالة حاضرة، ولا تستطيع أن تشارك الماضي في طبيعته إلَّا بواسطة الذِّكرى التي خرجت منها"²⁶. ومن هنا فإنَّ تلك الذِّكريات التي صاغها خيال الكاتب نتيجة رؤيته للوحة القائد مسكاردو، هي ذكريات تحتوي على مسحة من الحزن، إلَّا أنَّ هذا الحزن من النوع المحبَّب إلى النَّفس، لأنَّه يتصل اتصالاً مباشراً بشخصية عظيمة في مثالياتها وقوَّتها، إنَّ تماهي الكاتب مع شخصيَّة مسكاردو، يعود في جذوره إلى إعجاب الكاتب بصفات القوَّة والشَّجاعة والإيثار، التي يحملها الجنرال، ومن هنا يمكننا القول: إنَّ التَّماهي " يمكن أن يحدث في كل مرَّة يكتشف فيها الشَّخص في نفسه سمة مشتركة بينه وبين شخص آخر، وكلَّما كانت السَّمات المشتركة أكثر أهميَّة وتعداداً كان التَّماهي أكمل "²⁷. يبدأ الكاتب أسلوبه المشوِّق، في التعريف بهذه الشَّخصية من نقطة محورية تمثِّل لحظة تأثَّر قصوى شعر بها:

"لكن الدُّمعة التي غلبتها وغلبتني في الكازار طليطلة، لم يكن مبعثها الاعتزاز بمجد خالد، ولا الحسرة على ماضٍ مجيد، وإنَّما بعثتها في عيني لوحة بسيطة مكتوبة بلغات ثلاث: الإسبانيَّة والفرنسيَّة، والإنجليزيَّة، معلَّقة في زاوية غرفة تلك القلعة الحصينة التي تُشرف على نهر التاج " ²⁸.

تتجاوز اللغات الثلاث محدوديتها، فتُخرج أفعال هذا البطل الأسطوري من زمنها المنصرم إلى الحاضر الذي خلق حالاً من التأثير لدى كلِّ من سمع، وتعرِّف على حكاية هذا البطل الذي شكَّلت بطولته صورةً مثالية للإنسان. وهذا يدفعنا إلى القول إنَّ: العلاقة بين الزَّمن والإحساس النفسي المرتبط به هنا تبدو علاقة معقدة، إذ من خلالها يتم احتضار الماضي بطريقة فعَّالة، ولا سيَّما أنَّ هذا الماضي يرتبط بأذهان - كلِّ من عاين المكان واستمع إلى حكاية الدليل - بالاكتمال والفعاليَّة، بالطريقة التي يمكننا أن نقول فيها: إنَّ الرِّحلة هنا "تعبِّر عن الرِّغبة في الرُّجوع إلى المصدر أي إلى حالة اللاوعي"²⁹. ولعلَّ تماهي الحدود بين الأزمنة قد حول الزَّمن إلى زمن داخلي، أفسح المجال واسعاً للمخيلة، كي تستعيد بطولة هذا القائد بطريقة مليئة بالإعجاب والاحترام، والرِّحلة بذلك إنَّما ترصد الخواطر المتداعية التي لا تخضع للقيم والمعايير، وإنَّما تنطلق إلى آفاق واسعة خالقة بذلك الغرابة المولدة للدهشة الناجمة عن بطولة هذا القائد.

وضمن هذا الفهم يعكس أدب الرِّحلات في بعض جوانبه بُعدين متكاملين:

- أحدهما تاريخي أو زمني، حيث يتم تصوير الأحداث الحقيقية التي وقعت في الواقع.
- والآخر يتسم بالبطولة، حيث تُعرض الأفعال الخارقة والمواقف الاستثنائية.

ومن خلال هذا التوازن بين الواقع والخيال، يتمكَّن السرد من إضفاء الإثارة والتشويق، ممَّا يجعل القارئ يشعر بالدهشة أمام القوَّة الفائقة، التي يمتلكها البطل وتقانيه في الدفاع عن قيمه وتمسكه بمبادئه. يقول: " فقد كانت هذه القلعة مقراً للكلية العسكرية، التي كان يرأسها ويقود حاميتها الزعيم مسكاردو، فلما نشبت الحرب، اعتصم بها منضماً بحاميتها إلى القوات الوطنية، ومناوئاً الجمهوريين والشيوعيين، وقد كان اعتصام الزعيم مسكاردو بالكازار طليطلة، ودفاعه المجيد عن حصنه، حديث العالم، يتربح تطورات كل متتبع لأخبار الحرب الأهلية الإسبانيَّة وأهوالها"³⁰.

²⁶برجسون، هنري، المادة والذاكرة (دراسة في علاقة الجسم بالروح)، ترجمة: أسعد بحري دزقاي، مراجعة: بدیع الكسم، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨، ص١٤٧.

²⁷ فرويد، سيغموند، علم النفس الجمعي وتحليل الأنا، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص٥٩.

²⁸ العجيلي، عبد السلام: حكايات من الرِّحلات، ص ٢٩.

²⁹عبد الله، نادية محمود، الرِّحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد، عالم الفكر، العدد: ٤، يناير، فبراير، مارس، ١٩٨٣، ص٩٧.

³⁰العجيلي، عبد السلام، حكايات من الرِّحلات، ص ٣٠ - ٣١.

تحقق الشخصية فعاليتها البطولية، من خلال تحديها للصعوبات، في سبيل ما آمنت به من مصالح الأمة، ومن خلال تفاعلها مع أهات مستضعفيها، لتحقيق انتصاراً مختلفاً عما هو مألوف.

فالدعو الذي يهدد السكان بالخطر، والدمار من وراء الأسوار، يشكل التحدي الأكبر الذي يبتئ الرعب، وهكذا فإن التغلب عليه ليس مجرد فعل بطولي، بل هو نوع من المعجزات الخارقة، وهذا ما منح شخصية القائد طابعاً أسطورياً، ولعل ذلك لم يكن نتيجة شجاعته وصلابته وحسب، بل كان بسبب تقديمه مصلحة الأمة، والشعب على مصالحه الشخصية، فكان من نتاج ذلك تقديم حياة ابنه الوحيد رخيصة في سبيل المبدأ. يقول معيداً الاتصال الهاتفي الذي جرى بين الجنرال مسكاردو، والقائد الشيوغي، وذلك عقب اختطاف ابنه: " الفتى مسكاردو: بابا!

الزعيم: نعم يا بني! ماذا هناك؟

الفتى مسكاردو: لا شيء يا أبت، يقولون لي إنهم سيعدمونني إذا لم تستسلم.

الزعيم: هل أنت خائف يا بني؟

الفتى مسكاردو: لا يا أبت!

الزعيم: إذن صلّ لله، واهتف عالياً لتحيا إسبانيا"³¹، وبذلك فقد تغلب الجنرال مسكاردو على عدوه الخارجي ومنعه من النيل من أهله، وتغلب على ضعفه الأبوي تجاه الابن، وتحزّر من ثقل هذه المشاعر، التي قد تكبله وتمنعه من القيام بواجبه على أكمل وجه.

ومن هنا يتشابك الواقع مع الخيال، فيسوق الكاتب قصة الجنرال مسكاردو من جديد، ولكن بطريقة تُثير الدهشة، وتترك القارئ في حال من الانبهار أمام عظمة التضحية والقوة، التي يمتلكها هذا القائد.

ومما تجدر الإشارة إليه في دراستنا للزمن في أدب الرحلات عند عبد السلام العجيلي، هو الحديث عن اختلاف الزمن، وتغيّره نتيجة الاختلاف في درجات الطول، الأمر الذي يؤدي إلى ضياع بعض الساعات عند الانتقال من دولة إلى أخرى، وهو أمر طبيعي يحدث لكل مسافر يقطع آلاف الأميال. يقول في قصة (ذكريات من ستوكهولم):

"لم أعتد أن أؤرخ أسفاري أو أن أدون مراحلها، بل إنني هنا في استوكهولم، أكاد أضيع حساب الأيام، ما أسمح أن يهرب الإنسان من الأيام، ثم يروح يشغل نفسه في مهربه في عذها، إنك واجد هنا ألف سبب وسبب تتكفل بأن تُسبك موقع يومك من الروزنامة، بل إن الساعات تضيق هنا، كما ضاع يوم كامل في روزنامة رفاق الرحالة ماجلان"³².

إن هذا المأزق الذي نجم عن غرابة حساب الزمان، قد أحدث فهماً جديداً حول سير الوقت؛ فهو لم يعد ماضياً يسترجعه الإنسان، أو حاضراً يعيشه، أو مستقبلاً ينتظر قدومه في يوم ما.

إن الزمن فقد وجوده نهائياً من حسابات الكاتب، ولم يعد مسجلاً في التقويم اليومي كباقي الأيام. والكاتب بذلك يُسلط الضوء على ظاهرة يلمسها المسافر، وهي الاختلاف في تحديد الزمان وأثر المكان في ذلك.

والفقرة السابقة إنما عكست - إضافة إلى تغيير الزمان أو ضياع ساعات منه، بفعل الانتقال الجغرافي من خط طول إلى آخر - صراع الإنسان بشكل عام مع الزمن، وعجزه عن التكيف معه. وعلى الرغم من وجود أسباب نفسية كثيرة، تؤدي إلى تشويش الزمن في ذهن الإنسان، إلا أن الأسباب التي حققت هذا التشويش هنا هي البيئة الجغرافية.

وهنا الغرابة لا تتبع من الإحساس النفسي، وإنما من كون الخطأ في حساب الزمن هو حقيقة واقعية لا علاقة لها بالضيق، أو الفرح أو بالإحساس بهما؛ فالنضارب في حسابات الوقت هو بفعل المرور في مناطق زمنية مختلفة. "إن سعي الإنسان

³¹ العجيلي، عبد السلام: المصدر السابق، ص ٢٣

³² العجيلي، عبد السلام: المصدر السابق، ص ١٠٣.

الحديث للاكتشاف والمعرفة، لن يلغي الرحلة، بل سيبقي عليها كوسيلة اكتشاف واكتساب المعرفة، وإن اختلفت طبيعة الرحلات ذاتها ووسائل تحقيقها³³.

يقول: "سألته أمس عن أمر الرحلة بين استوكهولم في السويد وهلسنغورس في فنلندا، وليس بينهما من عرضٍ غير بحر البلطيق، فقل لي: ثلاث ساعات في الذهاب وساعة واحدة في الإياب، والطريق واحد، ولما بدت الدهشة على وجهي وأُفهمت كيف ضاعت في اختلاف درجات الطول ساعتان في الحساب"³⁴، إن التفاوت في التوقيت بين مختلف الأماكن على سطح الأرض، من أكثر الظواهر التي قد تُثير دهشة الإنسان، وتدفعه إلى التساؤل والبحث بغية فهم السبب الحقيقي الكامن وراء تضارب الوقت، وتداخله أو ضياعه عند الانتقال من مكانٍ إلى آخر.

وفي الختام يمكننا القول: إن حضور الزمان والمكان في أدب الرحلات بشكل عام، وفي قصص عبد السلام العجيلي بشكل خاص، يتأثر بالظروف التي يسعى الكاتب من خلالها إلى توثيق الأحداث التي مرت معه، مما يفرض منطقاً خاصاً في التعامل معها. ولذلك فإن حضور هذين العنصرين في كثيرٍ من الأحيان يبعث على الدهشة والغربة، ويترك المتلقي في حيرةٍ من أمره.

ووسط هذه الدهشة والحيرة يدرك القارئ أن الحياة شديدة التنوع والغنى، لا تحدّها الحدود، وأن كل رحلة يقوم بها المرء، إنما تحمل في طياتها فرصة جديدة للتعلّم والمعرفة، حيث يواجه الإنسان في أسفاره أشياء كثيرة وتفاصيل مفاجئة تجعله يُعيد التفكير من جديد، وتشجّعه على أن ينظر إلى هذه التفاصيل من زوايا مختلفة عما استقرّ في ذهنه.

الاستنتاجات والتوصيات:

إن الرحلة عند عبد السلام العجيلي، ليست تقريراً جافاً، يحيل القارئ إلى أمكنة بعيدة، وإنما هي نقل لطيف يضع القارئ على عتبات الاكتشاف الممزوج برغبة الخروج. عن المألوف والترويح عن النفس.

- ينقل الكاتب المكان في رحلاته بشيء من التفصيل، والهدف من ذلك جعل القارئ يشاهد ويعاين ما يراه، وأن يشعر بالدهشة معه.
- الرحلة ليست دائماً مصدراً للبهجة والمرح، وإنما هي في بعض الأحيان تحمل بعداً إنسانياً وجودياً، كما في قصة (رحلة في جوف الأرض).
- تشكّل الأمكنة المتنقلة، كالقطارات والطائرات، مسرحاً يضمّ على خشبته أشخاصاً مختلفين، في عاداتهم ولغاتهم وطباعهم، الأمر الذي يغدو مجالاً للمقارنة وإظهار الفروق بينهم، من جهة، والتعبير عن ثقافة الكاتب، ومقدرته على معرفة البلدان وطباع أهلها، من جهة ثانية.
- كشف الكاتب من خلال قصته (الجنرال مسكارودو، والحج إلى قرطبة)، أن الرحلة لا تكون دائماً بالانتقال عبر المكان، وإنما بالانتقال عبر الزمان أيضاً.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

- العجيلي، عبد السلام
- دعوة إلى السفر، دار عويدات، بيروت، ط1، ١٩٦٣.
- حكايات من الرحلات، دار المعارف مصر، القاهرة، ط1، ١٩٥٤.

³³ فهد، حسين محمد، أدب الرحلات، ص3٦.
³⁴ العجيلي، عبد السلام: حكايات من الرحلات، ص ١٠٣.

- ثانياً: المراجع:
- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤.
- برجسون، هنري، المادة والذاكرة (دراسة في علاقة الحسم بالروح) ترجمة: أسعد عربي دزقاوي، مراجعة: بديع الكسم، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨..
- شاهين، سمير الحاج: لحظة الأبدية (دراسة الزمن في أدب القرن العشرين)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٨.
- شبيل، عبد العزيز: الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف، سوسة، تونس، ط١، ١٩٨٧.
- صالح، صلاح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
- عدة مؤلفين، الدكتور عبد السلام العجيلي درة الفرات، الإعداد والتوثيق: علي القيم، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، 2006.
- عبد الله، نادية محمود، الرحلة بين الواقع الخيال في أدب أنريه جيد، عالم الفكر، يناير فبراير، مارس، العدد ٤، ١٩٨٣.
- فرويد، سيغموند، علم النفس الجمعي وتحليل الأنا، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- فهم، محمد حسين، أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٣٨، يونيو، ١٩٨٩.
- قادري، عليمه: نظام الرحلة ودلالاتها (السندباد البحري - عينة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦.
- متيري، جان، علم نفس وعلم جمال السينما، ترجمة: عبد الله عويشق، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٠.
- النصير، ياسين: الرواية والمكان، دار نينوى، دمشق، سورية، ط٢، ٢٠١٠.
- النصير، ياسين: المساحة المختفية (قراءة في الكتابة الشعبية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٥، ص ٨٥.
- هلسا، غالب: المكان في الرواية العربية، دار ابن هانئ، دمشق، ١٩٨٩.
- وهبة، مجدي: كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة بيروت، ١٩٧٤، ط٢.
- ولسون، كولن، خفايا الروح، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الآداب، 1981، بيروت.
- يونغ، كارل: الإنسان ورموزه (سكيولوجيا العقل الباطن)، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٢.